تحملني سيارة يقودها احد رجال ابو كريم نحو المدينة . والسائق فتى مراهق يدعى محمود . وعلمت فيما بعد انه ينتمي الى وحدة احتياط في فتح وقد خاض الحرب الاهلية في لبنان ، كما خاض ما يسميه الفلسطينيون حرب الايام الثمانية ، اي الغزو الاسرائيلي لجنوب لبنان في آذار(مارس) ١٩٧٨ .

يحدثني محمود بطريقة متوترة ومثيرة ، اشتبه بانها تنتمي الى هؤلاء الذين يخوضون صراعا من اجل البقاء كل يوم . ان اشخاصا مثله يعرفون كم هم عرضة للخطر في الحياة ، ويحيون ايامهم عند درجة وعي اعلى باستمرار من درجة وعي الآخرين ، لا بد ان يجمعوا احتياطات عظيمة من القوة والدقائق العاطفية .

يريد ان يعرف ماذا « فعلوا » بي في الولايات المتحدة . ويقول بكثير من الايماءات الفكهة : « يا اخ ، تشبه واحدا منهم ، بلحيتك وشعرك » .

في الطريق الى البلدة نعبر عدة نقاط تفتيش ولكنهم يلوحون لنا بالمرور . ويكتفي محمود بالاعراب عن ازدرائه ويكمل سيره . قبل ان نصل الى الغيتو الفلسطيني ، حيث امضي ليلة مع عائلتي ، يوقفوننا عند نقطة تفتيش اخرى . ويدخل جندي مكسو ببطانية رأسه عبر النافذة .

ويطلب منا بفظاظه : « بطاقات الهوية » .

ويعود الخوف . الخوف من الرسميين العرب ، من رجال الشرطة والجنود والممثلين الآخرين للسلطة الحكومية، الذي كان جزءا من الرعب في حياتي كفلسطيني في العالم العربي في الخمسينات . لدي جواز سفر ساري المفعول ، وتأشيرة الى لبنان ويرافقني شخص من « الحركة » ومع هذا فان اللقاء يطلق في بواعث لا عقلانية لا يسعني السيطرة عليها ، ووخزات خوف لم اختبرها منذ عشرين سنة . وينكرني ذلك بالعبد الهارب في اميركا الذي يعود الى الجنوب ، بعد الغاء الاستعباد بوقت طويل ، ويسمع على حين غرة لهجة جنوبية ، وتتصاعد من لا وعيه مخاوف اعتقد انها اختفت الى الابد .

يتفحص الجندي بطاقة هوية محمود الصادرة عن فتح ويعيدها على الفور . واسلمه انا جواز سفري الاسترالي ، وهو جواز سفر كان معي منذ ان صرت مواطنا استراليا متجنسا في ١٩٦٤ . ويحيره جواز السفر ويريد ان يعرف ما اذا كان لدي بطاقة هوية لبنانية . وعندما اقول لا ، يصر على انه لا بد ان يكون لدي بطاقة هوية عربية وعندما اقول انني لا املك تلك ايضا ، يأخذ في الصراخ بنوع من الالحاح اليائس في صوته انه لا بد ان يكون لدي على الاقل وثيقة « عربية » من نوع ما .

ويأخذ محمود في الصراخ فعلا الآن في الرجل قائلا له الا يزعج « احد ضيوف الثورة » . ويلين الجندي ويدعنا نذهب .

المزاج السياسي لبيروت ، مغزى حياتها الايديولوجية ، هو ها هنا يحدق بي في وجهي — على الجدران . فكل جدار لكل منطقة نمر بها مغطاة بالشعارات السياسية وبالصور الكبيرة التي بحجم الملصقات لرجال ونساء قتلوا في المعركة . والشعارات على الجدران تعلن عن التضامن والصراع والتحرير والتحالفات والاعياد السنوية .